مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 5 السنة: 2020
ص: 203 - 217 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

النقد اللساني في الثقافة العربية المعاصرة: مفهومه، صوره وبعض نماذجه

Lingual criticism in contemporary Arab culture Its concept, images, and models

*ط.د/زكموط بوبكر[1]، أد/ حسيني بوبكر[2]
Zakmout boubaker [1], hacini boubaker[2]
جامعة قاصدي مرباح ، ورقلة (الجزائر)
University of ourgla- Algeria
zakmout17@gmail.com[1]
hacinibakr@yahoo.fr [2]

تاريخ الإرسال:2020/04/15	تاريخ القبول2020/09/28	تاريخ النشر : 2020/12/25

ملخص البحث

يعالج هذا المقال النقد اللساني في الثقافة العربية المعاصرة باعتباره أداة تقييمية و تقويمية موازية للممارسة اللسانية، و بوصفه اختبارا إبستمولوجيا يستعان به في الكشف عن أصول هذه الممارسة، ومبادئها، ومستلزماتها.

ونروم – من خلال هذا المقال- سبر أغوار الممارسة النقدية اللسانية في ثقافتنا العربية؛ وذلك بالدخول في حوار مع بعض النماذج التي منحت نفسها شرعية التناول النقدي للمنجز اللساني العربي، واتخذت منه مسارح للفكر ومطارح للنظر.

الكلمات المفتاح : نقد؛ لساني؛ ثقافة عربية؛ مؤسس؛ غير مؤسس.

Abstract :

This article addresses lingual criticism in contemporary Arab culture as an evaluation corrective tool parallel to linguistic practice**,** and as epistemological test used to reveal the origins of this practice and its principles and requirement .

Through this article we aim to discover the secrets of linguistic critical practice in our Arab culture**,** by engaging in dialogue with some models that have given themselves the legitimacy of the critical handling of the Arabic linguistic achievement**,** and have taken it as a criticism matter.

Keywords: criticism**,** Lingual**,** Arab culture**,** Founder**,** unfounded.

* زكموط بوبكر : zakmout17@gmail.com

مقدمة:

رغم إقرارنا بأنّ الاكتشاف العلمي عامل أساسي، وجزء جوهري في بناء المعارف البشرية فإنّه لا ينبغي لنا أبدا أن نقف عند حدود معطياته؛ فمعارفنا –نحن البشر– تحتاج دائما إلى المراجعة والتعديل، بل إنّها تحتاج إلى إعادة إنتاج، ولن يتاح لها ذلك إلّا من خلال أدوات تستوعب الصواب، و تصوب الأخطاء، وتسدّ الثغرات، وتصحب حركة البحث العلمي في خط مواز، لتكون مقوما متى حصل زيغ وانحراف.

ولا غرو أن يكون النقد من أهمّ هذه الأدوات على الإطلاق؛ فقد أسهم بصورة واضحة في توالد النظريات الكبرى في مختلف الحقول العلمية، ولاسيما حقل اللسانيات؛ ومن الشواهد الدالة على هذا أنّ النظرية التوليدية مثلا، خضعت للمراجعة أكثر من مرة بعد أن طالتها سنان الدلاليين و على رأسهم كاتز وبوستال وفودور[1]، بل إنّ المعرفة اللسانية الحديثة نفسها لم تولد إلّا بعد مراجعة المنجز اللغوي الذي ساد قبلها. ولئن لم يفرد دي سوسير لنقوده مؤلفات خاصة «فإنّ دروسه قد كشفت وعيه الحاد بالمأزق التاريخي الذي آلت إليه اللغويات التاريخية بما فيها حركة النحاة الجدد[2]».

ولئن كانت الثقافة اللسانية الغربية قد توسلت النقد اللساني وأولته العناية اللازمة حتى بلغ ما بلغ؛ فإنّ نظيرتها العربية لم تول كبير اهتمام للممارسة النقدية، وبهذا ظلت الكثير من الدراسات اللسانية العربية أبكارا لم يلتفت إليها، ولم تنل نصيبها من التحقيق، وإن كنا لا نعدم وجود جهود عربية سلكت نهج المساءلة و انبرت لتمحيص المنجز اللساني العربي، رغم تفاوتها في الالتزام بالمنهج، وتباينها من حيث القيمةُ العلمية و التقيّد بأخلاق الممارسة النقدية.

وعلى هذا الأساس سنسعى في مقالنا هذا إلى ضبط الإطار العام للنقد اللساني في ثقافتنا العربية، كما سنحاول استعراض بعض النماذج النقدية اللسانية المؤسسة، وغايتنا الإجابة عن التساؤل الذي جعلناه منطلقا لهذا البحث:

– ما أبرزُ ملامح الممارسة النقدية اللسانية في ثقافتنا العربية المعاصرة؟.

أولا: مصطلح النقد اللساني في التداول العربي:

يحسن بنا – قبل بيان ماهية النقد اللساني– أن نشير إلى أنّ الأزمة المصطلحية العربية في الميادين العلمية عامة، و اللسانيات بشكل خاص، كانت ولا تزال من العقبات الكأداء التي تعيق تقدم البحث العلمي العربي، وتقف حاجزا دون تحقيق النتائج المرجوة منه، ولا يخفى على أحد من الدارسين أنّ للمصطلح دورا خطيرا بالقدر الذي قد يؤدي إلى استغلاق العلم وانسداد أفقه. ولقد وجدنا أنّ مصطلح "النقد اللساني" من المصطلحات اللسانية الحديثة التي طالها التضارب المفاهيمي في التداول العربي؛ إذ يوظف أحيانا للدلالة على تلك الأداة التقويمية التي تتوسل النظريات اللسانية في التحليل النقدي للأعمال الأدبية [3]. ويوظف أحيانا أخرى، للدلالة على المراجعات النقدية التي تتخذ من المعرفة اللسانية و المنجز في إطارها هدفا لها[4] .

ومن الجلي أنّ المفهومين السابقين يشيران إلى حقلين مختلفين لكل منهما موضوعه الخاص، وإن كانا يجتمعان في منطلق مبدئي مشترك؛ ولهذا فإنّنا نقترح إضافة تحديدية للمصطلح بغية إزالة اللبس بينهما؛ فنقول "النقد اللساني للأدب" إذا أردنا المفهوم الأول. ونقول "النقد اللساني" إذا أردنا المفهوم الثاني.

ثانيا: ضبط مفهوم النقد اللساني:

يعرّف أحد الباحثين النقد اللساني بأنّه «ذلك النقد الذي ينطلق إلى موضوعه المستهدف نقدًا بمرتكزات وأسس لسانية عامة أو جزئية خاصة [والمقصود] بالمرتكزات اللسانية العامة الأسس المشتركة بين المدارس اللسانية المعروفة(...) وبالنسبة للأسس الجزئية، فالمقصود بها تلك الأسس الخاصة التي تختص بها نظرية لسانية معيّنة .ومن ذلك أنّ فكرة التوزيع أساس اختصّت به المدرسة التوزيعية الاستغراقية، التي يتزعمها بلومفيلد[5]» .

والظاهر أنّ صاحب هذا التعريف جانب الصواب؛ إذ وسع نطاق النقد اللساني، فجعل من الأسس الجزئية التي تختص بها نظرية لسانية بعينها أساسا للحكم على نظرية أخرى، وفاته أنّ كثيرا من النظريات اللسانية إنّما تتمايز فيما بينها على أساس جزئيات محدّدة. ولهذا فإنّ من الخطأ أن يصدر الناقد عن نظرية لسانية بعينها ليحكّمها على نظرية أخرى؛ فالنقد يجب أن ينطلق من محددات عامة حتّى يضمن حق الباحثين في اختيار ما يلائمهم من نماذج «شريطة ألا يخالف ذلك المبادئ الكبرى في اللسانيات العامة[6]» .

من هذا المنطلق يمكن أن نعرف النقد اللساني بأنه : أداة تقويمية وتقييمية، منطلقها محدّدات نظرية ومنهجية عامة في إطار النظرية اللسانية العامة، وهدفها فحص المعرفة اللسانية الخاصّة بنموذج لساني ما، أو نماذج عدّة، أو التطبيقات المقترنة بهذه النماذج، من خلال النظر في أسسها ومرجعياتها، والقيمة الموضوعية لنتائجها[7]. وبهذا التحديد يغدو النقد اللساني أداة تشريحية هدفها المعرفة اللسانية بوصفها بناء علميا يخضع إلى مجموعة من المبادئ و الأصول والاستلزامات.

ثالثا: النقد اللساني في الثقافة العربية – تحديد أولي–

نقصد ب"النقد اللساني في الثقافة العربية" تلك الجهود التي نهدت لمراجعة الأعمال اللسانية التي تناولت اللغة العربية وقضاياها في ضوء المنجز اللساني الغربي، وكانت الغاية منها فحص الإنتاج اللساني العربي من خلال النظر في أسسه، و مبادئه ، وقضاياه، و مرجعياته الفكرية، ونتائجه التي توصل إليها.

والملاحظ أن حركة النقد اللساني في الثقافة العربية تأخرت بعض الشيء عن حركة الإنتاج اللساني العربي، ويرجع هذا الأمر في اعتقادنا إلى سببين اثنين:

– الحضور المحتشم لعلم اللسانيات في الأوساط العلمية العربية في أوّل الأمر .

– ولأنّ مرحلة النقد مرحلة تعقب مرحلة الإنتاج المعرفي؛ فهي تستلزم تمثّلا واضحا للعمل المنجز، وتتطلب وعيا تاما بمصادراته. ولا شكّ أنّ هذا الأمر يأخذ بعضا من الوقت.

رابعا: صور النقد اللساني في الثقافة العربية:

قبل أن نضبط صور النقد اللساني في العالم العربي لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هناك كتابات نقدية لسانية عربية تضمنت إشارات عامة لبعض صور النقد اللساني في ثقافتنا العربية المعاصرة، ونحسب أنّ هذه الكتابات لم تكن ترمي إلى تحديد صور النقد اللساني العربي بقدر ما رامت إثبات شرعيتها في ظل وجود خطابات نقدية رديئة لا تمت للنقد اللساني المؤسس بصلة[8].

وبالمقابل هناك دراسة لإسماعيلي علوي و امحمد الملاخ تضمنت تصنيفا صريحا للكتابة النقدية اللسانية في الوطن العربي، وقد حصرتها في ثلاث صور رئيسية[9]:

– كتابة نقدية عامة: تركز بشكل أساسي على تخلف البحث اللساني في العالم العربي، وضعف مردوديته، من دون تحديد الأسباب الحقيقية لهذا التخلف.

– كتابة لسانية خاصة: تستهدف أحد اللسانيين أو أحد المدارس اللسانية، وأحيانا تركز على فرع من فروع الدراسة اللسانية كالصوتيات مثلا.

– كتابة لسانية مؤسّسة: ويعتمد هذا النوع من النقد على محدّدات نظرية ومنهجية تضمن للناقد تماسكا واضحا من خلال الربط بين المقدمات والنتائج، وحسن صياغة الإشكالات والإجابة عنها بوضوح، والتماسك في التحليل ممّا يستجيب لقيد النسقية .

والملاحظ أنّ هذا التحديد يمكن أن يعدّ منطلقا للتصنيف، غير أنّه يحتاج إلى وقفة متأنية؛ ذلك أن الكتابات النقدية العامة يمكن أن تكون مؤسسة ويمكن أن تفتقد الأساس. والأمر ذاته ينطبق على الكتابات النقدية الخاصة.

وعلى هذا الأساس نرى أنّ النقد اللساني في الثقافة اللسانية العربية يجب أن يصنّف إلى صنفين لا غير: نقد مؤسّس، ونقد غير مؤسس[10]، من دون الدخول في تحديدات (العام / الخاص) لأنّ هاتين الصورتين تندرجان بشكل أو بآخر تحت الصنفين المذكورين، بالنظر إلى المعيار المتّبع في عملية التصنيف؛ نعني بذلك التأسيس .

1. النقد اللساني غير المؤسس: يتجسد هذا النوع من النقد في صور عدة، أبرزها ذلك النقد الذي يتخذ منحى عدائيا، ويكون أقرب إلى نقد الأشخاص منه إلى فحص التصورات[11]. ومن نماذج هذا النقد مثلا؛ اتهام اللسانيين العرب بالجهل بواقع لغتهم و أصولها « لأنّ العارف لا يعوزه منهج جديد لفهم لغته ومبادئها[12]» . ولا يخفى على الدارس المنصف ما تحمله هذه اللغة من إشارات واضحة للتظلم والاستخفاف بمدارك الغير.

وبعيدا عن هذه الصورة النقدية اللاعلمية؛ تأخذ الكتابات النقدية العربية شكل ملاحظات بسيطة تفتقر إلى رؤية واضحة مؤسسة. وتنحصر أهداف هذه الملاحظات– على الأغلب– في الإشارة إلى ضعف الدراسات اللسانية العربية على الصعيد العملي والتربوي، أو حصر نقائص الدرس اللساني العربي وبيان تخلّفه، أو الغلو في تثمين نتائجه وإنجازاته، أو الانتصار للتراث اللغوي العربي من منطلق الحرص على عدم تجاهله في البحث اللساني العربي الحديث.

2. النقد اللساني المؤسس: هذا النوع من النقد قليل جدّا في الساحة اللسانية العربية، بل إنّ الباحث لا يكاد يجد للممارسة النقدية المؤسّسة سوى نماذج قليلة، استطاع أصحابها الدخول في حوار جدّي ونقاش عميق مع الكتابة اللسانية العربية الحديثة، ممّا أثمر نتائج نظرية ومنهجية طيبة.

هذا النقد يقوم على أساس المحاورة والمناظرة بين الفكر الناقد والمنقود، ويعتمد طرق الاستدلال الأكثر وضوحا في البحث العلمي[13]. وسنقف فيما يلي على أهمّ الكتابات النقدية اللسانية المؤسسة لنناقش بعضا من أفكارها وأنظارها.

أ. عبد السلام المسدي: لقد انخرط المسدي في مشروع النقد اللساني منذ ثمانينات القرن الماضي، لما استشعره من حاجة إلى صياغة أبحاث تؤكّد قدرة العربية على تمثّل النظرية اللسانية الحديثة وما يرتبط بها من حقول معرفية، وذلك بنقد الأسس النظرية التي قامت عليها. وقد ساعدته في ذلك ثقافته الواسعة، واطّلاعه الكبير على الأعمال اللسانية الغربية والعربية على حد سواء. ويعدّ كتابه "اللسانيات وأسسها المعرفية" من بواكير المؤلفات العربية التي حاولت أن تمنح نفسها شرعية التناول النقدي للمنجز اللساني العربي، من خلال تشخيص الوضع المأزوم للسانيات في ثقافتنا العربية، وما تشهده هذه الأخيرة من ارتباك. وأوّل ما يلوّح للقارئ في هذا الكتاب رصدُ المسدّي مجموعة من التصورات الخاطئة التي علقت في أذهان بعض اللسانيين العرب في العصر الحديث، وكانت من العقبات الكأداء التي حالت دون تحقيق النتائج المرجوة من البحث اللساني العربي.

ومن ذلك أنّ بعض الباحثين احتفوا بالتراث احتفاء عظيما، وتمسّكوا بمقولة «أن النحو العربي ولد بأسنان» وقد قادهم إلى هذا الاعتقاد جهلهم «بحقائق علوم اللسان في العصر الحديث فلم يتسنّ التمييز بموجب ذلك بين دراسة اللغة بوصفها نموذجا معيّنا، كأن تكون عربية أو إنجليزية، أو صينية، وبين دراسة اللغة من حيث هي معطى بشري وظاهرة كونية، وهو منطلق البحث الأساسي فيما يعرف باللسانيات النظرية أو العامّة[14]».

ومن مآخذ المسدّي على الدرس اللساني العربي، أنّه يكاد ينحصر في دراسة الصوتيات، بالرغم من أنّ الدراسة الصوتية وحدها لا يمكنها أن تكشف خبايا الحدث اللغوي[15].

وممّا يقف حاجزا أمام النهضة اللسانية العربية – في نظره- المعركة المفتعلة بين المعيارية والوصفية، و إسقاط الريب التي أحيطت بدراسة اللهجات على علم اللسانيات. وكذلك لغة البحث اللساني التي كثيرا ما تكون لغة أجنبية، فضلا عن كثرة الكتابات التي تقدّم النظرية اللسانية الغربية، وقلّة الدراسات النظرية، واقتصارها على جانب التعريفات ممّا يتعلّق بحدّ العلم، و تحديد موضوعه، وبيان مناهجه[16].

تلكم بعض مظاهر الأزمة اللسانية العربية التي ذكرها المسدي، وهي — في اعتقادنا- مظاهر عامة تتقاسمها مختلف العلوم في ثقافتنا العربية؛ فإشكالية التراث والحداثة مثلا، تطرح على أكثر من صعيد وتشمل أكثر من مجال، وليست متعلقة بالجانب اللغوي فحسب. أمّا كتابة البحوث العلمية بغير العربية؛ فهذا إشكال يرجع بالدرجة الأولى إلى الوضع الثقافي السائد عندنا، ويمكن أن يعالج في إطار أوسع وأشمل، وهو قدرة العربية على استيعاب خطاب الآخر، وقدرتها على مسايرة التطور والتقدم الذي تشهده مختلف الميادين العلمية في الثقافة الغربية. أمّا بخصوص ندرة البحوث العملية؛ فهذا مظهر من المظاهر العامة في البحث العلمي العربي المعاصر ولا يتعلق بالبحث اللساني على وجه التحديد. ويبدو أنّ الإشكال الوحيد الذي يرتبط مباشرة بأزمة اللسانيات في عالمنا العربي هو موضوع اللسانيات « ونظرا إلى أهمية تحديد موضوع اللسانيات (...) فإنّ ما يثير الانتباه فعلا، في عرض المسدي لهذا العائق، هو تأكيده على مسألة اللهجات العربية ودراستها وتغييب الفصحى كموضوع للسانيات العربية[17]» .

وغير بعيد عن أزمة اللسانيات في عالمنا العربي وجدنا للمسدي مجموعة من الملاحظات القيّمة حول البحث اللساني بشكل عام، و الكتابة اللسانية العربية على وجه التحديد، وذلك في عدد من مؤلفاته، ولا سيما "مباحث تأسيسة في اللسانيات " و " العربية والإعراب " وهي ملاحظات تكشف بصورة واضحة سعة اطّلاع الرجل وتمرسه في مجال النقد[18].

ب. عز الدين المجدوب: يعدّ المجدوب من بين النقّاد اللسانيين القلائل الذين وجدنا لهم آراء نقدية تستند إلى منهج علمي وطرح موضوعي، وهذا راجع إلى وعيه بضرورة التأسيس للممارسة النقدية.

وينطلق المجدوب في نقده للسانيين العرب من المحدّدات النظرية التي أقرّها الباحثون في فلسفة العلوم، ليتبنّى أطروحة مفادها الفصل بين مفهومين أساسيين هما: الفرضيات والمنوالات. هذا الفصل من شأنه أن يسمح بالتمييز بين التفكير اللغوي القديم وبين اللسانيات، كما يساعد على رصد تطورات علم اللسانيات وتحديد منعرجاته وفهمه فهما صحيحا[19]. وقد مكّنه هذا الإطار الإبستمي من تحديد جملة من الأخطاء والنقائص التي وقع فيها بعض الباحثين العرب، لخّصها فيما سمّاه " التجريبية".

والتجريبية تعني« قلة التنظير للممارسة العلمية، وعدم وعي الباحث بالمسلّمات التي ينطلق منها، وعدم تفكيره فيما يقتضيه التسليم بها من مستلزمات ونتائج فرعية[20]». وبهذا فإنّها نتيجة حتمية لعدم تمثّل المعرفة اللسانية تمثلا واضحا، بالإضافة إلى كونها انعكاسا طبيعيا لغياب الوعي بالخصوصية التي تقتضيها معالجة أنحاء في إطار أنحاء أخرى. ومثل هذا الرأي- وإن كان في سياق أشمل منه- نجده عند طه عبد الرحمان الذي ينتقد بعض المحدثين الذين تناولوا التراث العربي بمناظر منهجية غربية، لم يتحكّموا في آلياتها، ولم يحسنوا استخدامها[21].

لقد صنّف المجدوب المقاربات العربية الحديثة للنحو العربي إلى صنفين: صنف يتمثل في المقاربات التي لا تنتمي إلى علم اللسانيات، ويمثل لها بكتاب «إحياء النحو» لإبراهيم مصطفى، ومؤلفات مهدي المخزومي . أمّا الصنف الثاني فيشمل المقاربات التي صدرت في نقدها للنحو العربي عن علم اللسانيات، ويمثل لها بكتاب "من أسرار اللغة" لإبراهيم أنيس ومؤلفات تمّام حسان.

وصفوة حديثه عن إبراهيم مصطفى أنّه لم يمتلك تصورا واضحا عن الممارسة العلمية بصفة عامة، ولم يكن ملما بعلم اللغة؛ إذ لم يميز بين اللسان باعتباره عنوانا للجماعة اللغوية، والكلام الذي هو عبارة عن إنجاز فردي. والظاهر أنّ تلميذه المخزومي ورث عنه هذه الأخطاء، بل إنّه« بلغ موقفا تجريبيا بحتا لم يبلغه أستاذه[22].».

أمّا إبراهيم أنيس فتتجسد التجريبية عنده في أمرين اثنين: أنّ الاتجاه اللساني الذي تشبّع بأفكاره، وهو الاتجاه التاريخي- المقارن، لم يكن ليصلح كإطار نظري في ظلّ تطور البحث اللساني وإعادة صياغة العديد من مفاهيمه وإجراءاته. والأمر الثاني يتمثل تحكيم الأنحاء الغربية على النحو العربي بناء على تصور فاسد مفاده أنّ جميع الأنحاء الطبيعية أنحاء متماثلة متطابقة[23].

أمّا تمام حسان فبالرغم من أنّ المجدوب يعتبره « أوّل العرب في المناداة بضرورة استقلال البحث اللغوي بخصائص تميّزه عن غيره من البحوث والاختصاصات[24]» . إلّا أنّ هذا لم يمنعه من تحديد المزالق التي وقع فيها هذا الرجل، ومن ذلك أنّه لم يع المنعرجات الحاسمة لعلم اللسانيات، ولم يساير تطوراته، ولم يتمثل جِدّته، ويذهب المجدوب في نقده لتمام حسان إلى أبعد من هذا حين يدعي أنّ تمام لم يستطع الخروج من عباءة الفكر التيسيري الإحيائي في نقده للتراث

النحوي، ولم يستطع أن يحيد عن الوجهة التي نهجها صاحب إحياء النحو ومن اقتدى به وتشبّع بأفكاره، حتّى وإن كان نقده لبعض الميسّرين يوهم بخلاف ذلك[25].

وواضح أنّ فكرة الفرضيات و المنوالات التي اتخذ منها المجدوب منطلقا لتحليلاته النقدية، واعتبرها أساسا للتفريق بين الفكر اللغوي القديم واللسانيات – وإن كشفت عن بعض المزالق التي وقع فيها بعض الدارسين العرب– لم تسعفه حين صنّف كتاب " من أسرار اللغة" في إطار البحث اللساني الحديث، بالرغم من أنّ المراجع التي اعتمدها أنيس في كتابه المذكور لا ترتبط ارتباطا صريحا باللسانيات السوسيرية، بل إنّها تعود إلى الحقبة الفيلولوجية.

ثم إنّ الاعتماد على نظرية الغلوسيماتيك –التي جاء بها لويس هيلمسلف– كإطار نظري بديل يتجاوز الأطر النظرية التي اعتمدها بعض الباحثين العرب في مقاربتهم للغة العربية، يضعنا أمام تساؤل محوري: هل الأسس التي قامت عليها هذه النظرية صالحة لوصف اللغة العربية؟. إنّ الإجابة عن هذا التساؤل تقتضي مساءلة هذه النظرية، لإثبات مدى نجاعتها، وهذا ما نأمل أن نحققه في بحث آخر إن شاء الله.

ج. حافظ إسماعيلي علوي: تكملة للمشروع النقدي اللساني الذي أرسى دعائمه مصطفى غلفان؛ أهدى علوي للمكتبة العربية دراسته القيّمة " اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة" وهي دراسة مفصّلة حول كيفية تقبل علم اللسانيات في الثقافة العربية، وتعدّ بحق من أرقى القراءات الفاحصة في مؤشرات الحوار العربي مع المعرفة اللسانية الوافدة.

ولم يشذّ علوي عن سابقيه من الباحثين الذين أثاروا موضوع أزمة اللسانيات في عالمنا العربي، فراح يشرّحها ويشخص أدواءها، ليقر في الأخير بأنّ الإشكالات المطروحة في الثقافة اللسانية العربية « ليست إشكالات لسانية فحسب، بل هي إشكالات محددات ورؤى فكرية تحتاج إلى إعادة التشكيل بطريقة صحيحة تساير وتواكب تقدّم الحضارة الإنسانية في مناحيها المتعدّدة[26]» .

وتحدّث في مبحث آخر عن اللسانيات التمهيدية متسائلا: هل نجحت الكتابة اللسانية التمهيدية العربية في تقريب علم اللسانيات إلى القارئ العربي ؟. وبعد قراءة فاحصة في عناوينها ومقدّماتها ومضامينها يقرّر أنّ اللسانيات التمهيدية « لا تلتزم بتعهّداتها مع قرّائها، فما تصرّح به مقدّماتها وعناوينها شيء، وما تقدّمه محتوياتها يبقى شيئا آخر[27]» .

أمّا لسانيات التراث فليست إلّا قراءة للتراث اللغوي العربي خارج الإطار الذي يجب أن يتنزّل فيه، و عموما فإنّ اللسانيين العرب الذين تبنّوا هذا الاتجاه إنّما كانت تحرّكهم اعتبارات نفسية لا علمية[28].

أمّا اللسانيات الوصفية فقد تميّزت بالانتقائية في عرض قضاياها، كما تميزت بالاستقراء الناقص لمعطيات التراث اللغوي العربي، فقد اكتفى الوصفيون العرب « بما يسوّغ آراءهم ، وأهملوا الآراء الأخرى التي لا تختلف في شيء عمّا انتقدوا به النحو العربي[29]»

والكتابة اللسانية التوليدية هي الأخرى تواجه إشكالات منهجية جمّة، فرغم تحقيقها نتائج طيّبة، فهي لا تركّز إلّا على المستويين التركيبي والصوتي وبدرجة أقل على المستوى الدلالي. والقضايا التي تطرحها التوليدية والنتائج المتحصّل عليها ليست محلّ إجماع بين التوليديين العرب« إنّ أبسط شروط التنسيق بين التوليديين العرب شبه منعدمة بخصوص قضية واحدة فما بالنا بالقضايا التي تطرح على مستويات مختلفة[30]» .

ويقدّم علوي تحليلا دقيقا للكتابة اللسانية الوظيفية في عالمنا العربي متخذا من أعمال المتوكل أساسا لتقييم المنحى الوظيفي العربي. وقد لاحظ في استعراضه لهذا المنحى أنّه كان نتيجة طفرة ولم ينتج عن تراكم . كما لاحظ أنّ الإشكالات المنهجية التي تطرح في اللسانيات التوليدية هي ذات الإشكالات التي تطرح في اللسانيات الوظيفية، غير أنّ هذه الأخيرة تجاوزت إشكالية التراث والحداثة، وتخطت التنافر والاختلاف بين روّادها، بل إنها استطاعت أن تجمعهم وتوحّد رؤيتهم للمفاهيم[31].

كانت هذه بعض الثمار التي حصّلناها من التجربة النقدية لعلوي، وهي بحق تجربة رائدة في مجالها، استطاعت أن تحتوي جلّ التجارب التي سبقتها وتتوسع في أفكارها وأنظارها، كما استطاعت أن تتعمّق في الكثير من الجوانب المتعلقة بالممارسة العلمية وتؤصّل لها. ونودّ أن نشير في هذا المقام إلى أنّ هذه المحاولة –رغم رصانتها و إحكامها– لم تسلم من بعض المزالق والهفوات، وقد وقفنا في قراءتنا لها على بعض الملاحظات التي لا تقلّل من قيمتها ولا تنتقص من قدر صاحبها.

وأوّل هذه الملاحظات أنّ علوي لم يستطع الوفاء لمذهبه الداعي إلى نبذ كلّ حديث يخضع علم اللسانيات لأوصاف قطرية ضيّقة تسيء إليه، فراح يردّد مصطلح "اللسانيات العربية" في

أكثر من موضع[32]،بالرغم من أنّه قرّر الاستعاضة عن هذا المصطلح بمصطلح " اللسانيات في الثقافة العربية" وبذلك نقض أحد أهمّ المبادئ التي قامت عليها دراسته.

وتحدّث عن رفاعة الطهطاوي ورأى أنّه كان متمكنا من أصول المنهج المقارن[33] ، وربّما كان هذا صحيحا، ولكنّ المقارنات التي عقدها الطهطاوي بين اللغة العربية والفرنسية لا يمكن أن تندرج ضمن البحث التاريخي- المقارن؛ فبغضّ النظر عن اختلاف اللغتين أصلا واستحالة التقريب بينهما، فإنّ الطهطاوي لم يكن يرمي إلى المقارنة بينهما انطلاقا من الأسس التي تواضع عليها علماء المنهج التاريخي- المقارن. بل إنّ مقارنته بين اللغتين كانت من باب بيان سهولة الفرنسية قياسا باللغة العربية.

وممّا لاحظناه أيضا، أنّ علوي يستدلّ ببعض النصوص المبتورة لينسب من خلالها مواقف خطيرة لبعض الباحثين، في خطوة بعيدة كل البعد عن المنهج العلمي، ومن ذلك استدلاله بنص لعبد السلام المسدّي يقول فيه« لا مهرب لنا من الإقرار موضوعيا بأنّ بعضهم (يقصد المستشرقين) قد عمل على ازدهار علم اللهجات بباعث إمّا سياسي غايته استعمارية وإمّا عقائدي يهدف إلى تقليص البعد الديني والوزن الروحي الذي للعربية عند أهلها ، وإمّا مذهبي يرمي إلى نقض التركيب الهرمي في المجتمع انطلاقا من دكّ بنيته الفكرية[34]» ثمّ يعلّق على هذا النص بقوله «وهذا يعني أنّ العناية بدراسة اللهجات كانت لأهداف مبيّتة[35] » والواقع أنّ المسدّي لم يرد بحديثه تعميم الحكم، وهذا ما يثبته الجزء المبتور من النص « وليس من شكّ في قيمة علم اللهجات من الناحية العلمية، وليس من شكّ كذلك في أمانة بعض أعلام الاستشراق عندما نهضوا بهذا العلم ونشطوا لترويجه[36]» .

والحقّ أنّنا لا نجد تفسيرا لهذه الأمر إلا محاولة الباحث إخراج النص من سياقه إلى سياق آخر، وتوظيفه في الفكرة التي يرتضيها دعما لوجهة نظره، وهذا مخالف للأمانة و لقواعد البحث المتعارف عليها.

خاتمة:

حاولنا في هذا المقال أن نقف على حقيقة النقد اللساني في الثقافة العربية، ونكشف عن أهم ملامحه، من خلال استنطاق بعض النماذج الرائدة. وقد توصلنا إلى مجموعة من النتائج نجملها فيما يلي:

– لابدّ للممارسة اللسانية من أداة تقويمية تلازمها، وهذه الأداة هي النقد اللساني.

– يأخذ مصطلح «النقد اللساني» في الثقافة العربية المعاصرة مفهومين اثنين : أحدهما توظيف النظريات اللسانية في النقد الأدبي، والثاني يتعلق بنقد النظريات اللسانية والمنجز في إطارها. وقد اقترحنا أن نزيل اللبس بين المفهومين بإضافة تحديدية للمصطلح في حال أردنا المفهوم الأول.

– عرفنا النقد اللساني تعريفا نراه مضبوطا، من جهة أنّه لا يعترف بتحكيم أنحاء على أنحاء أخرى، و إنّما يعتدّ بما هو مسلم به في إطار النظرية اللسانية العامة كمساطر أساسية للنقد، وهذا لا يعدم استعانته بعلوم أخرى.

– عرفنا "النقد اللساني في الثقافة العربية" بأنّه: تلك الجهود التي نهدت لمراجعة الأعمال اللسانية التي تناولت اللغة العربية وقضاياها في ضوء المنجز اللساني الغربي.

– اقترحنا أن نقسم النقد اللساني إلى قسمين: نقد لساني مؤسس يستند إلى رؤية منهجية واضحة وطرق استدلال محكمة. ونقد غير مؤسس قد يتجسد في صور شتى، أبرزها النقد التلاسني.

– تبين لنا– من خلال النماذج التي استعرضناها– أنّ النقد اللساني المؤسس في الثقافة العربية قد يكون نقدا عاما يتناول المنجز اللساني العربي في عمومه، وقد يكون نقدا خاصا يتناول نموذجا واحدا أو نماذج قليلة.

– استطاع النقد اللساني في ثقافتنا العربية أن يكشف لنا العديد من الممارسات الخاطئة في الدرس اللساني العربي الحديث، غير أنّه لم يبلغ شأوا عظيما ومازال في أول الطريق، كما أنّه هو الآخر يحتاج إلى نقد.

– وأخيرا نقول : إنّ النقد اللساني يجب أن يلازم الإنتاج اللساني العربي و يشاركه المضمار نفسه، لأنّه الوسيلة المثلى للكشف عن مزالقه و أخطائه، و هذا ما يضمن للباحثين تصحيحها وتلافي الوقوع فيها مجددا.

هوامش:

[1]– معلوم أنّ تشومسكي في بداية وضعه لنظريته التوليدية التحويلية صبّ جلّ اهتمامه على تحليل ثلاثة مكونات للتراكيب اللغوية هي: المكون التوليدي، والمكون التحويلي، والمكون الصوتي الصرفي، ولكنّه أهمل المكوّن

الدلالي، وهذا ما حدا ببعض اللسانيين أمثال كاتز وبوستال وفودور لتوجيه انتقادات حادة لنظرية تشومسكي. وممّا لا شكّ فيه أنّ تلك النقود أسهمت بشكل كبير في تطور النظرية التوليدية التحويلية، فقد تناول تشومسكي هذه النقود بصدر منفتح وقام بتعديل نظريته بإضافة المستوى الدلالي، ودمج المكونين التوليدي والتحويلي في المستوى المركبي مع الإبقاء على المستوى الصوتي. ينظر : استيتية سمير شريف، اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج، عالم الكتب الجديد للتوزيع والنشر، عمان، ط1، 2015، ص 184.

[2]– المسدّي عبد السلام، اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التنونسية للنشر، تونس، دط، 1986،ص 120.

[3]– بن فريحة الجيلاني، ممارسات في النقد اللساني عند عبد السلام المسدي، مجلة دراسات معاصرة، المركز الجامعي تيسمسيلت، العدد1، مارس 2017، ص 54.

[4]- بركات مبروك ، ملامح النقد اللساني العربي في ضوء الإجراء النقدي اللساني و التلاسني، مجلة الباحث، جامعة تيارت، الجزائر، المجلد 15، العدد 3، 2017، ص 77.

[5]– بو شنب حسين، النحو العربي القديم والنقد اللساني الوصفي الخارجي، مذكرة ماجستير، إشراف عمار ساسي ، المدرسة العليا للأساتذة، الجزائر، 2006، ص 95.

[6]– غلفان مصطفى، اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر و الأسس النظرية والمنهجية، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، المغرب، سلسلة رسائل و أطروحات، رقم4، 1991، ص 06.

[7]– هناك تعريف آخر للباحث بركات مبروك مضمونه أنّ " النقد اللساني أداة تقويمية تلازم المنجز من البحث اللساني ونظرياته– ملازمة النقد الأدبي للمنجز الأدبي ونظرياته التحليلية– وتهدف للكشف عن مظاهر الجدية العلمية و المنهجية فيه،وتستند هذه الأداة إلى عدّة علوم ومرتكزات تسهم في موضوعية هذا النقد وجديته" بركات مبروك ، النقد اللساني العربي دراسة تقويمية للبحوث النحوية النقدية الحديثة، أطروحة دكتوراه، إشراف عبد المجيد عيساني، كلية الآداب واللغات ، جامعة ورقلة، الجزائر، 2017/2016، ص 29.

[8]- لقد سبق أن أشار بعض الباحثين إلى صور النقد اللساني العربي، والظاهر أنّ اغلب تلك الإشارات اتسمت بالعموم؛ فالمزيني حدّد بعض صور النقد اللساني في إطار توصيف وضعٍ عام تشهده الثقافة النقدية العربية فقال «أمّا عندنا فكثيرا ما يغلب على مراجعات الكتب مجاملة المؤلف لصداقة بينه وبين المراجع، أو تغلب عليها القسوة لسبب من الأسباب غير العلمية» المزيني حمزة بن قبلان ، مراجعات لسانية، سلسلة كتاب الرياض،رقم 75، مؤسسة اليمامة، الرياض، دط، 2000،ج1، ص9 . ويذهب غلفان نفس المذهب تقريبا؛ إذ يحصر صور النقد اللساني العربي في جملة من الخطابات التي عادة ما تكون خطابات انفعالية سلبا أو إيجابا لا تخدم البحث العلمي. وقد يقتصر التحليل النقدي في كثير من الأحيان على تقديم كتاب، وهذا التقديم لا يخرج عن كونه مجرّد اختصار، أو استخلاص لأهم الأفكار التي تناولها الكتاب. وقد يأخذ النقد كافة أشكال التنويه والتمجيد فيصبح العمل المنقود وحيد عصره وفريد زمانه، أو يحصل العكس فيكيل الناقد للمنقود جميع أشكال الاستهزاء والاستخفاف. غلفان مصطفى، اللسانيات العربية الحديثة، ص 56.

[9]- علوي حافظ إسماعيلي و الملاخ امحمد قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، منشورات الاختلاف الجزائر، والدار العربية للعلوم لبنان، ط1،2009، ، ص 189 .

[10]- هاتان الصورتان قد تتجسّدان في كتابات الناقد الواحد، بل قد تجتمعان في عمل نقدي واحد.

[11]- ينظر: علوي والملاخ، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، ص 189.

[12]- العبيدي رشيد عبد الرحمان ، مباحث في علم اللغة واللسانيات، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 2002 ، ص 250.

[13]- ينظر : غلفان مصطفى ، اللسانيات العربية الحديثة ، ص 57.

[14]- المسدّي عبد السلام ، اللسانيات وأسسها المعرفية ، ص 12-13.

[15]-ينظر : المرجع نفسه، ص 13.

[16]- المرجع نفسه، صص 15-19.

[17]- غلفان مصطفى، اللسانيات العربية أسئلة المنهج ، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2013، ص 102 .

[18]- من ذلك نقده لإبراهيم أنيس، و مازن الوعر، و رشاد الحمزاوي، المسدّي عبد السلام، العربية والإعراب، دار الكتاب المتحدة الجديدة، بيروت، لبنان، ط1، 2010، صص 81-152 .

[19]- المجدوب عز الدين ، المنوال النحوي العربي -قراءة لسانية جديدة- دار محمد علي الحامي، تونس، ط1، 1998، ص 06.

[20]- المرجع نفسه، ص 12. ويبدو أنّه قد تلقّف هذا المفهوم من كلام الفاسي الفهري الذي وصف فيه بعض المحاولات اللسانية العربية الأولى بالتجريبوية الساذجة، ورأى أنّها صورة من صور التخلف اللساني العربي. ينظر: الفاسي الفهري عبد القادر ، اللسانيات واللغة العربية، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1،1985، ص 57.

[21]- يقول طه عبد الرحمان« قد غلب على نقاد التراث التوسل بأدوات البحث التي اصطنعها المحدثون من مفاهيم ومناهج ونظريات، معتقدين أنهم بهذا التقليد قد استوفوا شرائط النظر العلمي الصحيح (...) والواقع أنّ التمكن من هذه المناهج لم يكن من نصيبهم، ولا التفنن في استخدامها كان طوع أيديهم ». طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث ، المركز الثقافي العربي،الرباط، ط 3،2007، ص 11/10.

[22]- ينظر : المجدوب عز الدين ، المنوال النحوي العربي قراءة لسانية جديدة ، ص ص 19- 26.

[23]- ينظر : نفسه، ص 35.

[24]- المرجع نفسه، ص 39.

[25]- ينظر: نفسه ، ص 43.

[26]- علوي حافظ إسماعيلي ، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دراسة تحليلية في قضايا التلقي و إشكالاته دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2009، ،ص 95.

[27]– المرجع نفسه، ص 128.

[28]–المرجع نفسه، ص 190

[29]–المرجع نفسه، ص 253.

[30]– المرجع نفسه، ص 322.

[31]– ينظر: المرجع نفسه، ص 381، 382

[32]– ينظر: المرجع نفسه، ص11 ،61، 69، 80، 82.

[33]– ينظر: المرجع نفسه، ص36.

[34]– المسدي عبد السلام ، اللسانيات وأسسها المعرفية، ص 16.

[35]– علوي حافظ إسماعيلي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة ، ص 69.

[36]– المسدّي عبد السلام ، اللسانيات وأسسها المعرفية، ص 16.